ظاهرة التكفير في العصر الحديث (مفهومها – أسبابها – وطرق الوقاية والعلاج) دراسة في ضوء القرآن والفقه

د.أحمد علي أحمد يعقوب - باحث اول
أستاذ الفقه المساعد كلية التربية -جامعة حجة
أ.د. حسن ناصر أحمد سرار – باحث ثاني
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك كلية التربية - جامعة حجة

الملخص

ظاهرة التكفير حالة مرضية ظهرت في أوساط المجتمعات الإسلامية المعاصرة، حيث بدأ بزوغها في وقت مبكر منْ تاريخ الإسلام، ولاقى الناس عذابها قديماً، ثمَّ أصبحت حديثاً ظاهرةً تشغل الناس، في مجالسهم ومنتدياتهم، ساعد على إيجادها عصبية وجهل وهوى وتقليد، وعدم تَعمُّق في دراسة العلوم الشَّرعية، ثم تَبع ذلك تهاونٌ وتقصيرٌ منْ ولاة الأمر، والعلماء والدُّعاة والمفكِّرين، وأحياناً عدم تمكين العلماء الرَّاسخين، والقادرين على معالجة هذه الظَّاهرة منَ القيام بدورهم المنشود، ممَّا أدَّى إلى الأخذ ببعض النصوص دون النَّصوص الأخرى، واعتمد على الجزئيات، وأُعرض عن الكُلِّيات، فضلاً عن قلة الفهم لبعض النُّصوص، وقد لاحظنا أنَّ مسألة التكفير فَشَتْ عند المتأخرين أكثر ممَّا كانت عند المتقدمين كما قلنا سابقاً، وعند بعض العلماء المُقلِّدين لا المجتهدين، وهذا ما تناولناه في بحثنا هذا.

كما تناولنا - أيضاً - استشعار السَّلف (الصَّحابة ومن بعدهم) آنذاك خُطورة أمرها، وشناعتها في بداية أمرها. ثمَّ تطوَّرت إلى أنْ أصبحت ظاهرةً في وقتنا المعاصر؛ حيث قاموا بالرَّد على خُطورتها، وحَكَموا على بُطْلانها، لمنافاتها لمبادئ هذا الدِّين، غير أنَّه بدلاً مِنْ أنْ تختفي مسألة التكفير- إلا بالضَّوابط والشُّروط فإذا لم تتحقَّق الشُّروط لم يتحقَّق التكفير-، صارت ظاهرةً، وانتقلت عدواها بقصدٍ أو بغير قصدٍ من الفئة التي اختصَّت بها، واحتضنتها وهم الخوارج إلى معظم الفِرَق الكلامية والمذاهب الفقهية، حيث أخذ بعض أصحابها التَّرامي بالكُفْر والتنابز بالألقاب المُضلِّلة عليه في غَمْرة هذه الصِّراعات المذهبية التي شَغَلَت المسلمين طِيلَة قُرون خَلَت، ثم ختمنا القول بأنَّ المُنْصِف من ذوي البصائر والتمييز يعلم أنَّ هذا الأمر لو بُحِثَ برَويَّة وتأنٍ وتَجرُّدٍ وحُرِّيةٍ ومَوضوعية؛ لكان ذلك أولى إلى طريق الحقِّ والهُدى؛ لأنَّ الخَوض في مسألة التكفير يحتاج إلى حِيْطةٍ وحَذَر.

12

مقدمة:

ظاهرة التَّكفير في أوساط المجتمعات الإسلامية المعاصرة؛ اخترنا هذه الظَّاهرة نظراً لأهميتها، وأهمية معرفة أسبابها، وكونها حامية الوَطِيْس لأعراض المسلمين، ودمائهم وأموالهم عند مَنْ يَعْقِلُها؛ حيث تُشكِّلُ معرفتها سياجاً، وسدَّاً مَنِيْعاً حول كلِّ مُسْلم، ووقايةً له مِنْ أنْ يُحكم عليه بالكفر لأدنى شبهةٍ أو هوى، كما أنَّ معرفة مفهوم هذه الظاهرة. أيضاً، ومعرفة أسبابها تحِدُّ من التَّقحيم في غائلة التكفير لمن أراد أنْ يتبصَّر، ويقي نفسه المغامرة في هذا المجال؛ وحتَّى لا يُخاطر بدينه وعاقبته، وكذلك. أيضاً. فإنَّ الإلمام بمفهومها وأسبابها يجعل الأمر في شأن التكفير مسنداً إلى أهله، وهم العُلَماء الرَّاسخون في العِلْم، والقضاة المُوكَل إليهم القضاء في الدِّماء والأعراض والأموال.

ولأنَّ تكفير أي إنسانٍ أو اتهامه بالفسق والضَّلال والانحراف يجرِّده عملياً منْ حقوقه الإنسانية، ويُعَرِّضه للإهانة والقتل، ثمَّ يُعرِّض المجتمع الإسلامي إلى الفُرْقة والاختلاف، وإذا انهارت الرَّابطة الدينية فلا مجال لأنْ يُستعاض عنها بشيءٍ آخر.

وإدراكاً من الإسلام بخطورة عملية ظاهرة التكفير، فقد دعا إلى احترام هوية كل منْ يَشْهد الشَّهادتين، ويلتزم بأركان الدِّين، وعدم التَّشكيك بإسلام منْ يُعْلن إسلامه حتَّى في ساحات القتال، حيث قال الله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً"

ومنْ هذه الحَيْثِيَّات والمنطلقات أردنا ببحثنا هذا علاج هذا الفكر، وذلك عن طريق الحوار والإقناع، وبإقامة الحُجَّة والبُرْهان، وذلك منْ خلال نُصُوص القرآن والسُّنة، وما أجمع عليه العلماء، وعلى ضوء تفاسير العلماء ورأي الفقهاء وما جاءت به المقاصد الشَّرعية لحفظ الضَّروريات، وهذا كله ما سنتناوله في بحثنا هذا، والذي وسمناه بعنوان: (ظاهرة التكفير في العصر الحديث، مفهومها، وأسبابها، وطُرُق الوقاية والعلاج).

أهمية البحث، وأسباب اختياره:

ومماَّ دفعنا إلى أهمية هذا البحث والكتابة فيه جملة أمورٍ، وهي على النَّحو الآتي:

١ -بيان خطر ظاهرة التكفير، وما يترتَّب عليها من المفاسد في حياة المجتمعات الإسلامية، ثمَّ بيان نظرة المقاصد الشرعية لهذه الظاهرة.

٢ -المساهمة في سَدِّ هذه الثَّغْرة، وللخروج برؤية شَرْعية، للحَدِّ منْ ظاهرة التكفير في وقتنا المعاصر.

٣ -المساعدة في تثقيف المجتمع المسلم بالفكر المعتدل، والقائم على الوسطية الشرعية.

٤ -التَّعاون مع ولاة الأمور لتأمين المجتمعات منْ هذا الدَّاء، ثمَّ وضع العلاج والحلول المناسبة له.

٥ -الإسهام بنفع المسلمين عُموماً، وطلاب العلم خُصوصاً، وإثراء المكتبة الإسلامية بكلِّ ما هو نافعٌ وجديد.

٦ -محاولة اكتساب القدرة الاستنباطية من النصوص الشَّرعية، واكتساب المَلكة الفقهية من خلال الموازنة بين أقوال العلماء، واستجلاء أدلتهم، وبيان الرَّاجح منها والصَّحيح.

الدراسات السابقة للبحث:

هناك بحوثٌ قد تطرَّقت إلى مسألة التكفير، وخطورته عبر وسائل وأساليب مُتفرِّقة في بطون كتب العلماء، وعبر مقالاتٍ متنوعةٍ، كما تطرَّقت هذه البحوث إلى مسألة التكفير وخطورته، وذلك ببيان أقوال العلماء، واستدلالهم، والرُّدود على بعض الفِرَق الضَّالة المخالفة للعقيدة، ثمَّ التحذير منْ هذه المسألة فقط، ومن خلال تتبعنا واستقرائنا لم نجد منْ تطرَّق إلى التكفير كظاهرةٍ نازلةٍ وقعت في هذا العصر الحديث، وهذا ممَّا دعانا وشجَّعنا في اختيار هذه الظاهرة والكتابة فيها، حيث وهذه الظاهرة تُعَدُّ مشكلةً تُهدِّد المجتمعات الإسلامية، وهي بحاجة إلى بحثٍ ودراسة، فكان لنا قَصَب السَّبق، للمساهمة وسدِّ الثغْرة فيها، وللخروج برؤيةٍ شرعيةٍ، مع بيان الوقاية منها، واتخاذ العلاج المناسب لها بالوسائل والأساليب الحديثة والجديدة.

مشكلة البحث:

كيف نظرت الشريعة الإسلامية إلى ظاهرة التكفير في العصر الحديث حُكْماً وأثراً.

فرضيات البحث:

اقتضت البُحوث عادةً أنْ تُبْرز تساؤلات عِدَّة؛ ليقوم الباحث ببحثها ومناقشتها، وبحثنا هذا يطْرح تساؤلات كثيرة، وهي على النَّحو الآتي:

وما تعريف الكفر في اللغة والاصطلاح؟

وما مفهوم التكفير؟

وما الأسباب الدَّافعة له؟

وهل الشَّرع الإسلامي حرَّم ظاهرة التكفير أم لا؟

و كيف نظر المفسرون والفقهاء لهذه الظاهرة؟ وما موقفهم منها؟

وما الآثار المترتِّبة على ظاهرة التكفير؟

وما طُرُق الوقاية والعلاج لهذه الظاهرة؟

وكل هذه التساؤلات وغيرها سنقوم بالرَّد والجواب عليها.

منهجية البحث: إنَّ المنهج الذي رأيناه محققاً لأهداف بحثنا ومؤدِّياً إلى الغرض منه هو المنهج الاستقرائي والتَّحْليل العِلْمي، وذلك من خلال تتبع النُّصوص القرآنية والنبوية، ثم دراستها على ضوء أقوال السَّلف والمفسرين والفقهاء، وبيانها بالحُجج والبراهين القويَّة، ثمَّ اختيار الرَّاجح منها بالأدلَّة الصَّحيحة.

خطَّة البحث:

وقد اشتملت خطَّة البحث على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وهي على النَّحو الآتي:

أولاً: المقدمة: وقد احتوت على أهمية البحث، وأسباب اختياره، والدَّراسات السَّابقة له، مع بيان مشكلته وفرضياته، ثم ختمت هذه المقدمة بمنهجية البحث وطريقة السَّير فيه.

ثانياً: المباحث، وهي على النَّحو الآتي:

المبحث الأول: مفهوم ظاهرة التكفير وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التكفير لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: أنواع التكفير، وشروطه المُعَيَّن عند العلماء.

المطلب الثالث: أثر ظاهرة التكفير على المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

المبحث الثاني: نظرة المقاصد الشرعية لظاهرة التكفير وأسباب هذه الظَّاهرة وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نظرة المقاصد الشَّرعية لظاهرة التَّكْفير.

المطلب الثاني: موقف العلماء من ظاهرة التكفير.

المطلب الثالث: أسباب ظاهرة التكفير.

المبحث الثالث : طُرُق الوقاية والعلاج من ظاهرة التكفير وفتاوى العلماء فيها وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الطُّرُق الوقاية من ظاهرة التكفير.

المطلب الثاني: الوسائل والأساليب المُتَّخذة في معالجة ظاهرة التكفير.

المطلب الثالث: فتاوى العلماء بشأن ظاهرة التكفير.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث، مع أهم توصياته، ثم قائمة بالمصادر والمراجع.